سيباستيان غونتر Sebastian Günther
(جامعة هاله)

تحولات مفهوم الإخوة الأعداء

صراع نمطي في الأدب العربي (الاسلامي) القديم والحديث

كثيراً ما تردّنا الأساطيرُ إلى بداية الزمن. فالأسطورة التي تروي قصة تاريخ مقدس أو عمل خارق ـ إذا اتفقنا مع ميرسيا الياد ـ تُطْلعنا على حقيقةٌ مطلقة. وهي تقوم، عبر روايتها المتكررة، بسدّ الثغرة الفاصلة بين ما هو مقدّس وما هو واقعي. وبمقدار ما تكون الأسطورة قصة حقيقية ربما حدثتْ في طفولة الجنس البشري فقد يُتّخذ منها اليوم مثالٌ لأفعال الإنسان، وتفسيرٌ لسلوكه؛ وبذلك تغدو الأسطورة قابلة للتكرار. فعبر قيام إنسان المجتمع القديم بتكرار الأعمال النموذجية للإله أو لأحد الأبطال الأسطوريين ـ أو حتى بمجرد تذكيره بحكاياتهما ومغامراتهما عبر سردها ونشرها ـ يحرر ذلك الإنسانُ نفسَه من بيئته الدنيوية ليدخل رحابَ «الزمن المقدّس» ويشارك في عظمته.

غير أنّ العكس هو أيضاً صحيح، إذْ إنّ هذه البنى ـ باعتبارها بُنَى قديمة للمجتمع الإنساني ـ تترجَم إلى أساطير وخرافات وموادّ روائية يتكرر نتاجُها في إطار هذه البُنَى، أي أن مشكلات عالم الإنسان وحياته تنعكس في الكنوز الغنية للصور الشعرية التي تزخر بها الأساطيرُ القديمة.

وللعائلة وأعضائها في هذا الصدد أهميةٌ خاصة لأنها تضطلع بدور مركزي في أيّ مجتمع قديم أو تقليدي. ولا غرابة في أننا نجد جملة من الصراعات بين الإخوة أو الأخوات عموماً، أو بين إخوة غير متكافئين بل أعداء خصوصاً، في عددٍ غيرِ قليل من النصوص الأدبية العائدة إلى أزمان مختلفة والمنتمية إلى ثقافات متباينة. وفيما يخص أسطورة «الإخوة الأعداء»، فإنّ هذه الأسطورة تجد طريقها إلى التعبير الأدبي بصيغتها الأدبية الخاصة التي لا تلبث، بدورها، أن تقوم بتحويل الأسطورة نفسها إلى إطار ثقافي أو ديني معيَّن. وفي هذه النصوص يكون مثالُ الإخوة الأعداء بالغ الأهمية لا على صعيد المضمون وحده، بل أيضاً بوصفه إطاراً وركيزة للبنية الروائية.

صحيح أن التركيز، يكون، كما هو منتظر، على الإخوة، ولكنْ هناك أخوات متصارعات أيضاً، ولو على نطاق أضيق بكثير. وعلى صعيد البنية الروائية يتعين علينا أن نميز بين نصوص يكون أبطالها مؤلَّفين من أخوين، أو ثلاثة، أو ثمانية (سبعة زائد واحد) أو اثني عشر.

وفي الحكايات الخيالية يضطلع الأخُ الصغير أو الأصغر ـ في الغالب ـ بدور بالغ النشاط والفعالية، أو يمثل «مبدأ الخير».

حسب التحليل النفسي لفرويد، يرجع تنافس الإخوة والأخوات إلى علاقة طفولية بالأبوين. وبالتالي فإنّ من شأن العلاقة بين الإخوة أو الأخوات أن تكون صيغة مخفّفة ولكنها حقيقية، من صيغ «موقف بيولوجي وراثي مبكر من الأبوين». فجريمة اغتيال الأب (أو أية نية مماثلة تستهدف سلطة أخرى، كالإله مثلاً) تتقلص إلى جريمة اغتيال الأخ. ومن ناحية أخرى فإنّ س.ج. يونغ يرى أنّ تنافس الإخْوة والأخوات ينبغي ردّه إلى عملية تدور داخل روح الإنسان حيث يكون الأخ الأصغر، في الغالب، ممثِّلاً لوظيفة الروح المهمَلة: حيث الشخصيتان المتنافستان جزءان متصارعان في الشخص الواحد نفسه.

والعائلة في هذا الصدد إنما هي رمز مجازي تبدو منظومةَ الشفرة المقنعة القادرة على حل رموز الشخصية كلها. وليس مثال الأخ إلاّ موضوعاً للتفسير واضحاً وضوحاً خاصاً.

أولاً

موضوعة «الأخوة الأعداء» قديم قِدَمَ البشرية نفسها. فقد ظلّ موضوعاً للقصص في سائر الأساطير والخرافات والحكايات والقصص الخيالية والقصائد لدى مختلف الشعوب والثقافات، وصياغاته الأدبية الأولى متركزة على موضوعَيْ: تقريب [تقديم] الأخ قرباناً، وعلى اغتياله. ففي حين يؤكد الأدبُ الديني موضوع تقريب القربان للإله، تميل

القصة ذات النزعة الدنيوية إلى تغليب فكرة اغتيال الأخ، أي فكرة «الخيانة» المشينة لمخلوق قريب:

١ ـ يروي العهد القديم القصة الشهيرة لقابيل وهابيل، ابنَيْ آدم وحوّاء. ولعل هذه الجريمة الاجتماعية الأولى الواردة في التوراة لا تصوّر فقط موضوعَ نزاع قديم بين المزارعين والرعاة، أي بين أجداد التكنولوجيا والثقافة (إذا تذكّرنا أنّ اسم قاين يعني «الحدّاد» باللغة العبرية، وهو يبدو جدّ العديد من أبطال «الثقافة» التوراتيين) من جهة، وبين أولئك الذين يعيشون حياة البداوة من جهة أخرى... بل إنها تصوّر موضوعاً عاماً تماماً مَدَارُهُ على أزواج من الإخوة الذين يمثلون أنماطاً نفسية وثقافية متضاربة ومتناقضة.

وفي التوراة قصة أخرى مشابهة إلى حد بعيد؛ وهي قصة ابنيْ اسحاق التوأمين عيسو ويعقوب اللذين يبدآن الصراع فيما بينهما وهما بَعْدُ في الرَّحم؛ فيعقوب صاحب «السيرة الحميدة» الذي يمثّل الثقافة المدَجَّنة، وعيسو الصياد القاسي، يكره كلٌّ منهما الآخر.

أما ولدا الملك داود أمنون الأكبر وابسالوم الأصغر فيتصارعان بسبب حُبّ الأول لتمارا أخت أبسالوم. وينتهي الصراع بنجاح أبسالوم بفضل مساعدة أبناء الملك الآخرين له في قتل أخيه أمنون. وإنّها المرّة الأولى التي تظهر المرأة فيها بوصفها موضوعَ الخلاف بين الأخوين، وهو موضوع يتكرر كثيراً بوصفه عقدةً مركزيةً في التطبيقات الأدبية اللاحقة لمقولة الصراع الأخوي.

وفي الأساطير الأخرى أيضاً تبقى أطروحة «الأخ ـ العدو» جزءاً من المخزون الأصيل.

٢ ـ ففي الميتولوجيا المصرية يُقْدِم سيث الغيور على قتل أخيه أوزيريس، إذ يقوم بوضعه في صندوقٍ يلقي به في مياه النيل.

٣ ـ وفي الأساطير الإغريقية القديمة تتجلى فكرة الإخْوة ـ الأعداء في حفيدَيِ الجَدّ المتهم تانتالاوس: أتريوس وثيستيس. فلأن ثيستيس هذا قد أغوَى زوج أخيه، فإن هذا الأخير يقتل أبناء الأوّل ويقدّم دمهم ممزوجاً بالخمر له خلال حفل ماجن. ولكن ثيستيس سرعان ما يكتشف المؤامرة الفظيعة ويهرب إلى سيكيون لسؤال العرّاف.

غير أنّ كُتّاب التراجيديا اليونانيين يستمدون مادتهم أيضاً من أسطورة ولديْ أوديب: پولينيكيس وإيتيوكليس اللذين يقتل أحدُهما الآخر في صراعهما الأخوي. ويعدّل التراجيدي أيسخيلوس هذه الموضوعة بما يتناسب وتراجيديتَهُ المعروفةَ باسم **القادة السبعة ضد طيبة**، حيث يطعن الأخوان كل منهما الآخر في الصراع على السلطة الموعودة من أبيهما.

٤ ـ وفي قصص روما البطولية يتصارع روموس ورروميولوس على تحديد أيّهما صاحب الحق في إطلاق اسمه على المدينة المؤسَّسة حديثاً على نهر التيبر. ويتم حسم الخلاف لصالح روميولوس الذي يقتل أخاه لدى تجاوز الحدود المحرَّمة.

٥ ـ أما في قصص البطولة الفارسية القديمة، فإنّ التوائم الذكور يتقاتلون وهم في الأرحام. كما أن عقيدة زرادشت الثنوية تقول: «في البدء كانت ثمة روحان، توأمان، كانتا، حسب الحلم ـ الوحي، تمثّلان الله والشيطان، على صُعُد الفكر والكلام والفعل... ولدى تلاقي هاتين الروحين، للمرة الأولى، بادرتا إلى تأسيس الحياة والموت...».

* * *

ومهما يكن فإنّ قصة قابيل وهابيل تبقى النمط الأكثر شيوعاً وانتشاراً، والأشدّ إثارة من بين أنماط الصراع الأخوي في الأدب. فهي تنطوي على مغزى وأهمية النموذج النمطي. ومنذ التأويلات والتفسيرات اليهودية ـ الهلينية قام المفسِّرون من أمثال فيلو يودايوس (المتوفّى حوالي عام ٥٠ ق.م.) ويوسيفوس فلافيوس (المتوفى بعد عام ١٠٠ م) ومعهما المفسِّرون من رجال الدين المسيحي الأوائل بشرح هذه القصة شرحاً أكثر تفصيلاً. وقام شرحُهم هذا على اعتبار أن الأخوين هما النقيضان الأصليان: الخير والشر؛ ورفْضُ الله لقربان قابيل واضح من عدم مباركته لغلال أرض الجاني.

ثم جاءت التأويلات والأساطير المسيحية لتضيف إلى هذه الفكرة أنّ عملية الاغتيال التي تعرّض لها هابيل لم تكن إلا مقدمة لموت المسيح التكفيري افتداءً. أما قابيل فيبقى، هنا أيضاً، تجسيداً للشر، بل للشيطان نفسه. وظلّت وجهة النظر هذه، ولفترة طويلة من الزمن، هي الصيغةَ المقبولة للإفاضة في هذه الفكرة في الأدب الغربي.

ثمّة، على الأقل، موجَزٌ أورده پيتروس كومَسْتَر في موضوع قابيل وهابيل في كتابه **هيستوريكا سكولاستيكا**، كان ذا تأثير ملحوظ على الصياغة الملحمية والدرامية اللاحقة لهذا الموضوع في العصور الوسطى الأوروبية. ومع ذلك فإنّ الصياغات الألمانية ما زالت مستندة استناداً كليّاً تقريباً إلى ما جاء في سِفْر التكوين، في حين نجد في جملة الطقوس السرية الفرنسية والإنجليزية تقويماً واقعياً تماماً ومفصّلاً لهذا الموضوع.

ففي عصر الحركة الإنسانية والإصلاح الديني في أوروبا، أثّرت الآراءُ وأنماط التفكير النظري السائدة تأثيراً ملحوظاً في الإفاضة والتوسّع في الموضوع على صعيدَي النقاش الجدلي مع الكاثوليكية من ناحية، والتثقيف الأخلاقي

ـ اللاهوتي والتربوي للناس وتعليمهم واجباتهم الدينية والأخلاقية من ناحية أخرى. إلا أنّ هابيل يبقى تجسيداً للخير المطلق، كما يظل قابيل رمزاً للشرّ الخالص الذي لا مزيد عليه ولا نموّ له.

ثانياً

إلى الآن لم يتم تناول موضوع «الإخوة ـ الأعداء» في الأدب العربي تناولاً شاملاً. ثمة خطوة منهجية أولى تحققت بفضل أطروحة نشرتْها جامعةُ ماينز مؤخراً. ولكنّ هذه الدراسة هي الأخرى تبالغ في التركيز على قصة قابيل وهابيل، وعلى تطورها الأدبي ـ التاريخي، وعلى بعض التفسيرات اللاهوتية لهاتين الشخصيتين في النصوص السُّنيّة. أما معالجة الموضوع بوصفه تعبيراً عن أحد النماذج النمطية للسلوك الإنساني فلم تتم إلا بصورة موجزة وهامشية.

ولكنّ المدهش هو أننا نصادف هذا الموضوع النموذجي الأصلي، ببنيته الأساسية، في العديد من النصوص العربية العائدة إلى ما قبل الإسلام التي تنتمي إلى أجناس أدبية مختلفة. وهو موجود، بالطبع، في القرآن في قصة ولديْ آدم التي ما لبثت أن انتقلت مراتٍ عديدة إلى الأدب العربي قديمهِ وحديثِه.

«الإخوة الأعداء»
موضوع نموذجي أصلي في التاريخ العربي الإسلامي: من قابيل وهابيل، ويوسف وإخوته، مروراً بشرحبيل وسَلَمَة، وعَبْس وذبيان، وانتهاءً بالمهدي وجعفر، والأمين والمأمون

١ ـ **أيام العرب**: تروي لنا أيامُ العرب بأسلوبها الرشيق والرائع:

أ ـ أسطورة الأخوين العدوين شرحبيل وسَلَمة ولديْ أمير الحيرة الحارث بن عمرو. وهذه القصة التي تُعرف أيضاً باسم «معركة كُلاب الأولى» يوردها، أيضاً، الشاعرُ امرؤ القيس في إحدى قصائده. تقول الروايات: إنه بعد موت الحارث في إحدى رحلات الصيد، نشأ صراع قوي بين أبنائه. واشتدت العداوة بصورة خاصة بين الأخوين شرحبيل وسلَمة. وآخر الأمر، عندما وقف الأخوان مع أنصارهما يواجه كلٌّ منهما الآخر، خصّص شرحبيل جائزةً تتألف من مئة رأس من الجمال لمن يجلب له رأسَ أخيه. وسارع سلمة إلى إعلان جائزة مماثلة. ودارَ قتال بالغُ الحِدّة والقسوة لأنّ جميع المقاتلين على الجانبين كانوا يسعون إلى الفوز بالجائزة. وانتصر سلمة في المعركة. فهرب شرحبيل الذي طارده أحدُ مقاتلي سلمة. وفي معركة بين الهارب والمطاردِ طعن الأولُ الثاني طعنة قاتلة فبادر أخو القتيل، بدوره، إلى مهاجمة شرحبيل مطالباً بالدية. وفيما شرحبيل يسخر من المهاجم قام الأخير بإيقاعه عن جواده، فقتله وأرسل رأسه إلى سَلَمة. وحين رأى سلمةُ المصيرَ المرعب لأخيه غرق في بحر من التوبة والندم وأنشد مرثية باكيةً موزونة أبّن فيها أخاه.

ب ـ ثمّة «معركة أخوية» دامية أخرى تعود إلى ما قبل الإسلام، ألا وهي تلك التي دارت بين عَبْس وذبيان «حفيدَي» الجدّ المشترك غطفان. تجري رواية قصة هذه المعركة في سياق معارك قيس عَيْلان. فبعد اتساع نفوذ بني عبس حوالي سنة ٥٥٠ م وسيطرتهم على جميع قبائل غطفان في الحجاز، اندلعت سلسلة من الحروب بين قبيلتَيْ عَبْس وذُبيان اللتين تتناوبان الانتصارات. ويفضي الخلاف بين قادة الطرفين إلى ما يعرف باسم «حرب داحِس والغَبْراء». وبعد ثلاثين سنة من الترحال والتجوال والمعارك تتمكن قبيلةُ عَبْس من إلحاق الهزيمة بتحالف يضم قبيلة ذبيان مع غيرها من العشائر، فيستتبّ السلام بين القبيلتين الشقيقتين.

٢ ـ ولكنّ المسلمين ربما باتوا مطّلعين على موضوع «الصراع الأخوي» بمضمونه الأساسي والهيكلي بفضل القرآن بالدرجة الأولى. فقصة قابيل وهابيل واردة هنا ولو بصياغة أقصر ومختلفة بعض الشيء. تَرِد القصة في ستٍّ من الآيات (سورة المائدة، الآيات ٢٧ إلى ٣٢) ﴿وَاتْلُ عَلَيهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدمَ بِالحَقّ إذْ قَرّبَا قُرْباناً فَتُقبّلَ مِنْ أَحَدهمَا ولم يُتَقَبّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأقتُلَنّكَ قَالَ إنّمَا يَتَقَبّلُ اللهُ مِنَ المتّقِينَ﴾.... من الجدير أن نلفت النظر إلى حقيقة أنّ الأخوين لا يَرِدُ ذكرُهُما في القرآن باسميهما العربيين: هابيل وقابيل، بل على أنهما ولدا آدم فقط، ﴿ابنَيْ آدم﴾.

تبقى القصة من حيث المضمون، مشابهة تماماً لنظيرتها في نصوص ما قبل الإسلام. فالأخ الذي يمثّل هابيل لا يبادر إلى الدفاع عن نفسه، ناهيك عن الانقضاض على المعتدي. يمتنع هابيل عن القيام بأية حركة لأنّ روحه تحضّه على الإصلاح ومخافة الله، في حين تبادر روح قابيل إلى حثّه على ارتكاب الجريمة. ومهما كان الحدث في القرآن مختلفاً عن النص التوراتي، فإنّه في القرآن يتحول إلى حوار، إذ يَصْدر عن هابيل حكمٌ على قابيل يقضي بأن يبقى الأخير في